Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في آن معاً. إذن فالأمر على غرابة كبيرة، فإلى أية ناحية ننظر في طرفي شخصية الأمي (ميشكين) باعتباره مخلصاً؛ إلى ناحية الفيلسوف أم إلى ناحية الأبله، ومتى نقرّ بأن هذه الناحية هي ناحية فلسفية، وتلك هي ناحية البلاهة، وما الذي سيقنعنا بهذه الازدواجية المحيرة؟ أجل إن السؤال الصادم يتمثل بـ هل لكي يكون المرء حكيماً أو فيلسوفاً لابدّ له من أن يتمتع بشيء من البلاهة؟! أسئلة كاوية ومقلقة تحاول الرواية بقوة الإجابة عنها.

ولعل الفصول الأخيرة من رواية الأبله تقارب هذه الأسئلة بإجابات مجترحة من روحها القلقة أيضاً، ففي نهاية الرواية، في الأسطر الأخيرة نقرأ ما يلي:

*– "كفى حماسات سخيفة!*

*آن لنا أن نسمع صوت العقل. كل هذا، كل هذه البلاد الأجنبية التي تشيدون بها، كل أوربا هذه التي تعظمونها، كل هذا ليس إلا سراباً، ونحن أنفسنا لسنا في البلاد الأجنبية، تذكروا ما أقوله لكم، ولسوف ترون بأعينكم".*

هذه هي الأسطر الأخيرة من رواية (الأبله)، وهي أسطر شديدة الوضوح والرؤيا أيضاً، ذلك لأن هذه القولة هي التي آمن بها دوستويفسكي طوال حياته الأدبية، فقد كان على قناعة تامة بأن خلاص روسيا يتمّ بإخلاصها لنفسها، وأن التقليد الأعمى والمحاكاة الواهمة لسيرورة الحياة الغربية، وأنماط المعيشة الغربية هما معاً مقتل الحياة الروسية، وهشاشة دواخل النفس الروسية ومواقع ضعفها يشكلان السبب الأول للانسياق الروسي نحو الغرب انسياقاً له علاقة بغريزة القطيع، ولهذا عُدّ دوستويفسكي نصيراً ومدافعاً عن الروح الاجتماعية والفكرية الروسية، وهو بذلك يضيف رؤيته إلى رؤية بوشكين وغوغول اللذين اعتز بهما طوال حياته، بل يكاد اسم بوشكين وأدبه لا يفارقان حوار شخصياته الروائية، إن لم أقل إن أفكار بوشكين ورؤاه حاضرة في أعمال دوستويفسكي كلّها.

في (الأبله) لا يقول دوستويفسكي هذه الفكرة فقط، وإنما يسوق العديد من الأفكار التي يبدو أن أبرزها على الإطلاق فكرته النيرة الهادفة إلى تجسيد (الطيبة الفاعلة) في بنى المجتمع، ومن ثم فكرته الأساسية الأخرى التي ألبسها لشخصية المرأة المغوية (ناستاسيا) التي تظلُّ فاعلة في العمل إلى آخر صفحاته، بل إنها تظلُّ مؤثرة وشاغلة لمن هم حولها وهي ميتة مسجاة في السرير، وخلاصة هذه الفكرة تتبدى في أن الجمال اللامثمر، الجمال الغاوي، أو لنقل